

## الاسلام إصلاح لا ثورة

يتلونه صباح مساء ، ويتدبرونه في كل آن ، ويعبدون ربهم بترتيله مع تطبيق ما فيه ، وليس بعد هذا تركيز أو إعزاز ! وحسبنا في مبدأ الإخاء قوله تعالى : « إيماناً المؤمنون إخوة » وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا » وقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » : وقول رسوله عليه صلوات ربه : « وكونوا عباد الله إخوانا » ، وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وحسبنا في الحرية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وقول عمر وهو يترجم عن روح الإسلام الصحيح أصدق ترجمة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . وحسبنا في المساواة قوله تبارك وتعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وقول رسوله عليه سلامه : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . وقول عمر لجيلة الغساني حين أبى وهو ملك أن يقتص منه سوقة اعتدى جيلة عليه : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء إلا بالتقوى والعافية ! . . .

وهناك بعد هذا فرق جو. رى كبير جداً بين الوثبة الإسلامية والثورة الفرنسية ، يبين لكم مدى الاختلاف بين عمل الإنسان وهدى الديان . فقد كان عمل الفرنسيين ثورة ، والثورة مؤامرة يحرض عليها الحثاء ، وينفذها الجهلاء ، ويحني ثمرتها الجبناء ؛ وقد كانت حركتهم حركة تمردية غاضبة صاخبة ، لا تدرى كيف تخطو ، ولا إلى أين تتجه ، فليس هناك منهاج معلوم ، ولا طريق مرسوم ؛ بل ضاق الشعب الفرنسى من ظلم حكامه وبنى طواغيته ، وترف رؤسائه وجفور كبرائه ، وجاع حتى اشتد به الألم من السغبة

الحمد لله ، هو ولى الرشد والتوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا خير إلا منك ، ولا نصر إلا بك ، ولا اعتماد إلا عليك : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبداً ورسولك ، أصلح الفساد ، وأتقذ البلاد ، وهذب العباد : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وطى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام ..

في الأمة الإسلامية قوم تربوا على غير مبادئها السليمة وأهدافها القويمة ، ترونها يحسبون منها وينسبون إليها ، وهم لا يؤمنون بها ولا يثقون فيها ؛ بل تتجه ثقتهم دائماً إلى كل شيء يأتي من الخارج ، حتى فيما يتعلق بالقلوب والعقول ، أو يتصل بالوقائع والتاريخ . . . وخذوا إن شئتم على سبيل المثال تمدحهم الدائم المتكرر بالثورة الفرنسية ؛ فهم يتغنون بها في حفلاتهم وكتاباتهم ، ويعتبرونها أكبر حادث قرر حقوق الإنسان ، وأعظم ناشر لمبادئ الإخاء والحرية والمساواة . . . وكذبوا الله ثم ضلوا ضلالاً بعيداً . . . إن الشمس عند أممتهم فكيف تركوها إلى المصباح الضئيل ، وإن السبق لدينهم العظيم الذى ينتسبون إليه ، فكيف يقدمون عليه لاحقاً لا يرتفع عن مرتبة الأقزام والذبول ؟ !

لقد سبق الإسلام ثورة فرنسا بأكثر من ألف عام في تقرير حقوق الإنسان ، والدفاع عنها بقوة وإيمان ، والحرص عليها مع حياطها بعوامل السلام والأمان ، ولم يكتف الإسلام بالنصوص يرددها ويلقيها ، أو يسجلها ويقيها ، بل جعلها جزءاً من العقيدة لا تسكمل صلة المرء بربه إلا إذا أقامها ورعاها ؛ ثم طالب أتباعه بأن يجاهدوا من أجلها ، ولا يلقوا أسلحتهم إلا إذا اطمأنوا إلى تنفيذها وسيادتها ؛ كما وضعها أمام أبصارهم وبصائرهم في كتابه المجيد

والحرمان ، فظن أنه ليس هناك أسوأ مما هو كائن ، فقام يهدم ويحطم ، ويقتل ويتخلص من الظالمين بلا تأن أو هوادة ، وأسرف في ذلك إسرافا مشينا بلا قانون أو معدلة ؛ وشاءت الأقدار أن تنجح الثورة ، لا عن بصر من أصحابها بالعواقب ولا عن طريق التدرج في الخطأ والمرايب ، بل لأن الحظ كان موافقا ، وانتهت الثورة بمبادئها الثلاثة التي أذاعتها فرنسا وتغنت بها ، ولكنها خرقتها ألف مرة ، ومآسى فرنسا السود في التاريخ السابق والمعاصر مستفيضة ، تشهد بها فظائعها في سوريا ولبنان ، وفي تونس والجزائر ، وفي غير ذلك من الأقطار ، وحديث الأفاعى طويل المدى . . .

وأما الإسلام فقد كان على العكس من ذلك ، لم يكن ثورة عمية بل كان إصلاحا مبصرا ، ولم يكن حركة تمردية تهدم وتحطم ، بل كان إحياء للمشاعر وبناء للمجتمع ، ولم يكن ضربة طائشة غير محددة الهدف ، بل كان صراطا مستقيما نزل به الروح الأمين ، من رب العالمين ، على قلب الرسول المبين ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور . وما أوضح الرسول وأصرحه حين يهتف في قومه أول الدعوة قائلا : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعا ما غششتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا » .

جاء الرسول قومه برضى ربه ، وقد بلغوا ما بلغوه من انخطاط وبوار ، فأبان لهم ما هم فيه من ضلال ، وما يجب أن يعملوا له من نجاة وخلص ، ورسم لهم الوسائل والسبل ، وحدد أمامهم الأهداف والمقاصد : من التوحيد والفضيلة والإخاء والعزة والعبودية لله وحده ، إلى آخر ما في الإسلام من مبادئ مقرررة مصورة ، ثم غرس الرسول بنور نبوته وتأيد دعوته ورباني كلمته هذه المبادئ في نفوس أتباعه ، حتى آمنوا بها وحرصوا عليها وعاشوا لها ، وأيقنوا أنه لا بد للعالم منها حتى يرقى ويسعد ، ثم قاموا عن رشاد وسداد يجاهدون من أجلها ، ويذلون دماءهم الزكية رخيصة في سبيلها ، حتى حققوها في ديارهم ، وفي الديار التي فتحوها باسم الإسلام ، على صورة لم تشهد لها مثيلا في التاريخ ، ومن هنا يظهر الفرق الجلى الواضح بين الإسلام والثورة ؛ فالثوارث الهاجعة الصاخبة قد تنجح وقد تفشل ، وقد تؤدي إلى عكس المراد منها ، وأما الإصلاح المرسوم المحدد ، المؤيد

بالأدلة والشواهد ، والموثوق من حقه وصدقه ، فلا بد من نجاحه لأنه يمشى على نور ويصل إلى بلاغ ؛ ولقد جاء الإسلام إصلاحا يقنع العقول ، ويجذب القلوب ويفتح الخصور ويرسم الطريق ، ويضع لكل مشكلة علاجا ولكل مرض دواء ، حتى ما خف من الأعراض والنوازل ، وكذلك كان من تأديب الله لرسوله في القرآن : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ولعل هنا عظة كبرى يجب أن نأخذها عن الإسلام ، فالإسلام لا يريد من القادة أن يكونوا أن يسيروا في طرقهم صما وعميانا ، ولا أن يتصرفوا بلا قاعدة أو منهاج ، بل لابد من معرفة الطريق أولا ، أين يبدأ وأين ينتهى ؛ ثم الإيمان بتوصيله ، ثم الوثوق باستقامته ، ثم الثبات عليه ، وبذل الجهد والطاقة لبلوغ نهايته أو الشهادة أثناءه ؛ فليت الذين يضعون في أيديهم مقاليد أمة محمد في العالمين يأخذون لأنفسهم درسا أى درس من هذه العظة ، حتى يرمموا لأنفسهم خطة ويضعوا لأنفسهم منهاجا ، بدل أن يسيروا خاضعين للظروف والناسبات . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الإسلام القيم الذى هدى الملايين لا يزال هو الإسلام : « لا تبديل لحلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . . وإن الإسلام الذى اهتدت به الملايين لا يزال صالحا لهداية ملايين أخرى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون » ... وهو لا يأتيكم باطشا بل مناقشا ، ولا يدعوكم إكراها أو إرغاما ، بل طوعا وإكراما : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . . .

وإن لكم فى هدى الإسلام لغنى عن دعوات تنهض ثم تتعثر ، وشجيرات تنبت ثم تتكسر ، وإن لكم فى صلاحه وإصلاحه لوقاية من زوات تشط وتنحرف ، أو شطحات تنحرف ثم تنحرف : « إنما يستجيب الذين يسمعون والوقت يبعثهم الله ثم إليه ترجعون » .

واقنوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قول هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

أحمد الشرباصى  
المدرس بالأزهر الشريف